العقل الجزائري في خطر لـ"مبارك الميلي"؛ قراءة تأويلية

The Algerian Mind in Danger "Mubarak El Melli" An Interpretive Reading

د. كاملة مولاي

المركز الجامعي عبد الحفيظ بو صوف – ميلة (الجزائر)

moulaikamla3000@hotmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/10/01 **تاريخ القبول: 2020/12/17**

ملخص:

الأستاذ «مبارك بن محمد الميلي» من الذين شاركوا بمقالاتهم وتحليلاتهم في تشخيص الداء الذي ألمّ بالأمة، واقتراح الدواء الناجع، لذلك راح يجلجل بآرائه في غير مواربة ولا خوف في مقال: "العقل الجزائري في خطر" الذي نشر بجريدة المنتقد، جامعا فيه إلى جانب القدرة على الكتابة البليغة الهادفة والخطابة المؤثرة، والزعامة في النضال السياسي والإصلاح الاجتماعي. الفلسفة التي تطبع تفكير مبارك الميلي فلسفة واقعية تنبع من تفكير إنسان مستوعب أسباب معاناة بلاده، فلسفة تلح على تمتين الصلة بين الفكر والعمل المطعم بالنزعة العقلية، باعتبار العقل ميزة الإنسان وأداة عمله. هذا ما سنحاول البحث فيه في هذه الورقة العلمية.

الكلمات المفتاحية: مبارك الميلي، الجزائر، العقل، الفكر، الخطر، الثقافة، تأويل.

Abstract:

Professor “Mubarak bin Muhammad al-Mili” was one of those who participated with their articles and analyses in diagnosing the disease that afflicted the nation, and proposed an effective remedy. In his article ‘ *The Algerian Mind in Danger’* , published in *El Mountakid Paper*, not only his objective rethoric influential capacity manifested, but also his leadership in political activism and social reform. The philosophy that imprints Mubarak Al-Milli thinking is a

المنارة للاستشارات

realistic philosophy of a person who understands the causes of his country's suffering, a philosophy that insists on strengthening the link between thought and action infused with mental inclination because the mind is the human's characteristic and his tool of action and this is what we attempt study through this paper.

***keywords**:* Mubarak Al-Melli Algeria, mind, thought, risk, the culture, interpretation.

مقدمة:

ارتبط العقل العربي عامة والجزائري خاصة ببيئته ومكوناتها من دين ولغة وتقاليد اجتماعية ونشأة محافظة، وتشكلت عنده منظومة من القيم التي اعتبرها قيماً عليا لتكوين الوعي لديه،كما اشتركت في تكوين عقله وأفكاره منظومة أخرى تتحكم فيها أحداث تاريخية ومنعطفات خبرتها الأجيال كظهور الصحافة في الجزائر خلال فترة الاستعمار صحافة وطنية عربية، ساهمت بفاعلية في بعث النهضة الفكرية والإصلاحية الحديثة. فقد عالجت كثيرًا من الموضوعات الحساسة، منها: الدعوة إلى تعليم الأهالي، وفتح المدارس العربية لأبناء المسلمين، والتنديد بسياسة المستعمرين واليهود، ومقاومة الانحطاط الأخلاقي والبدع والخرافات. وها هو الأستاذ «مبارك بن محمد الميلي» من ضمن أعضاء جمعية العلماء المسلمين الذين شاركوا بمقالاتهم وتحليلاتهم في تشخيص الداء الذي ألمّ بالأمة واقتراح الدواء الناجع لذلك، راح يجلجل بآرائه في غير مواربة ولا خوف في مقال: "العقل الجزائري في خطر" نشر بجريدة المنتقد. فأي خطر هذا الذي يداهم عقل الفرد الجزائري؟ ومن وراءه وهل من حل لرد هذا الخطر؟

1/ الحركة الثقافية في الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي:

منذ أن وطأ الاستعمار الفرنسي الأراضي الجزائرية أخذ مخططه الكولونيالي يتسرب إلى الحياة الثقافية، تعمق تدريجيا طيلة القرن التاسع عشر لكن مع بداية القرن العشرين استطاع أن يحقق نتائج ملموسة، وذلك على شكل صور منها[1]:

– الرسالة الحضارية التي تحملها فرنسا إلى الجزائريين، وكانت هذه الرسالة التي تقدم في شكل يستند إلى ما يسمى "المركزية الأوربية" حيث يجعلون من أوربا مركز الإشعاع

المنارة للاستشارات

الحضاري، والحضارة العربية الإسلامية هي حضارة متخلفة أدت رسالة في زمن مضى سرعان ما تحولت إلى ركود وتأخر في كافة الأصعدة.

- أما الصورة الثانية، فهي تقديم الجزائر في أحلى الأوصاف بصفتها بلدا سياحيا يتوفر على مناظر خلابة لإقناع الأوربيين بضرورة الالتحاق ببلد تسوده الخيرات والثروات.
- صورة الجزائر بلد لاتيني، وجزء لا يتجزأ من فرنسا الأم. هي فكرة الفرنسي "لويس برتراند" الذي أراد أن يجعل الجزائر قطعة من فرنسا ليغير التاريخ برمته بإسناد الجزائر إلى بلده. وهي الفكرة التي لم تتحقق لا على المدى القريب ولا البعيد.

ما يمكن استخلاصه من هذه الصور أنّ فرنسا قد استنفدت جميع طاقاتها في الغزو الثقافي للجزائر، فلم تعد لا فكرة الجزائر لاتينية ولا المركزية الأوربية ولا الدعوة الإدماجية قادرة على إقناع الجيل الجديد لأنهم أدركوا بأن الاستقلال لا يمكن أن يتحقق في غياب الوحدة الوطنية.

2/ دور الصحافة في الدعاية لأفكار مبارك الميلي:

في عام 1925 صدرت جريدة "المنتقد" لصاحبها الشيخ عبد الحميد بن باديس، وهي جريدة سياسية تهذيبية انتقادية، شعارها الحق فوق كلّ أحد والوطن قبل كلّ شيء تصدرها نخبة من الشبيبة الجزائرية صبيحة الخميس من كل أسبوع. كان هدف الجريدة هو تسليط الضوء على أخطار المستعمر ومحاربة بدع وضلالات رجال الطرق الصوفية التي خدرت المجتمع الجزائري وانحرفت به عن الإسلام الصحيح، فصدر أول عدد منها في 03 جويلية 1925م الموافق لـ 11 ذي الحجة سنة 1343هـ بمدينة قسنطينة. وفي افتتاحية العدد الأول أراد ابن باديس أن يبين أهدافه وغاياته وأراد أن يعرف دعوته للناس فكتب يقول: "باسم اللّه، ثم باسم الحق والوطن، ندخل عالم الصحافة العظيم، شاعرين بعظمة المسؤولية التي نتحمّلها فيه، مستسهلين كلّ صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون ... وها نحن نعرض على العموم مبادئنا التي عقدنا العزم على السير عليها. المنتقد جريدة سياسية تهذيبية انتقادية، شعارها الحق فوق كلّ أحد والوطن قبل كل شيء...".

المنارة للاستشارات

وقد كان تكليفه بإدارة تحرير جريدة البصائر فرصة لتطويرها وجعلها واجهة للدفاع عن أفكار ومواقف الجمعية، والربط بين مختلف أفراد شعبها وجسرا لمد جسورها الطبيعية مع العالم الإسلامي والعربي، وفضاء لتدريب الأقلام الشابة على خوض غمار الكتابة وعالم الصحافة. لكن الصحافة عند مبارك الميلي وإخوانه أصحاب "حزب الإصلاح" كما سمتهم جريدة الشهاب كانت الوسيلة الأكثر فعالية في عملية الإصلاح العقدي من خلال التفافهم حول جريدة المنتقد فالشهاب، واللتين مثلتا منبر الإصلاح العقدي في المجتمع وبداية طرح أسبابه ومناقشته. كان على المصلحين الذين تصدوا لهذه العلمية أن يكونوا حذرين في طرحهم للقضايا العقدية وفي كيفية مناقشتها، لأنّ الظروف كانت تحتاج إلى الليونة في المعالجة[2].

في يوم 06 أوت 1925 العدد السادس، دون الشيخ مبارك الميلي مقالا له تحت عنوان "العقل الجزائري في خطر" ليلفت الانتباه إلى خطر مظاهر المسخ التي يمارسها الاستيطان الفرنسي من أجل القضاء على عناصر الهوية الوطنية، وخاصة تلك الدعايات التي أطلقها أبناء ديغول بخصوص تاريخ الأمة، حيث حاولت فرنسا مرارا وتكرارا التنكر للجزائريين من خلال الحرص على تمرير معلومات تفيد بأن الجزائريين مجرد قبائل مبعثرة لا توجد بينهم أية روابط اجتماعية وتاريخية، وهو ما جعل العلامة مبارك الميلي يصر على دق ناقوس الخطر والعمل ضمن منظومة الإصلاح الوطني التي أنجبت رجالا ساهموا بوعي في تحرير الجزائر ضمن ثورة تدرس في أكبر الجامعات في العالم.

3/ قراءة تأويلية للنص:

إنّ المتتبع لكتابات "راستيي" يفيد صعوبة القول بإمكانية استنتاج مفهوم ما للنص. ويرجع ذلك بالأساس إلى طبيعة الموضوع، الذي ما فتئ يطوره، وهو الدلالة التأويلية للنص. وقد أدت طبيعة هذا الموضوع إلى جعل تفكيره مرتبطا بقضايا القراءة والتأويل. ولذلك فإنّ كلّ الآليات التي نحثها بعد تأمل إبيستيمولوجي عميق، أو التي ابتدعها، لا تخرج عن إطار ذلك التفكير. ومن ثمة لا يمكن الحديث عن آليات التأويل أو عن مفهوم

المنارة للاستشارات

النص عنده، إلا انطلاقا من استنباطهما من مفهوم القراءة عنده. بيد أنّ مفهوم القراءة عنده، لا يمكن أن يتضح إلا إذا أدركت خلفياته الإبيستيمولوجية وآلياته، ثم أشكال إجراءاته:

أ/ الخلفية الإبيستيمولوجية:

- **دلالة العنوان:**

يتحقق تأويل أيّ نص أدبي بفضل عملية التفاعل بين القارئ والنص، و"هذا التفاعل كفيل بجعل القراءة فاعلة ومنتجة كما أنه يضمن التواصل المطلوب بين الطرفين.. والقارئ في علاقته بالنص يكون موجهاً بطريقة ما من النص عبر مجموعة من الصيغ والإشارات وما إلى ذلك مما يتضمنه النص المقروء. لكن هذا لا يعني أنّ النص يقمع نشاط القارئ ويوقفه بل هناك مجال يتحرك فيه القارئ أيضا"[3].

- **البنية العميقة:**

يتناول هذا البحث مقال (العقل الجزائري في خطر !!) عبر قراءة تأويلية هدفها الكشف عن الدلالات العميقة الثاوية في البنية الداخلية للنص، والتي تنتمي ضرورة إلى بنية خارجية أكبر منها، ولا تُغيِّبُ القراءة في مراحلها الأخيرة رصد تأثير مرجعياتها الواقعية على تلك البنية الداخلية، فضلاً عن تشخيصها للتغييرات التي طرأت على المراجع بعد أن تحوّلت إلى دوال في عالم النص اللغوي المتخيَّل والحقيقي. كما أنّ النص امتلك مجموعة من التقنيات الفنية التي أسهمت في صياغة صورة ذلك العالم، صياغة شعرية متميزة تتناسب بدقتها مع دقة اللحظة التاريخية الحرجة، المتأزِّمة، التي ولد فيها المقال.

بتفاعل العقل الإنساني مع مكونات البيئة التي يعيش فيها والأطر المجتمعية التي ينشط من خلالها ينضج ويتطور؛ وتشمل البيئة المعنية عناصر طبيعية وأخرى اجتماعية وثالثة تكنولوجية ورابعة فكرية، فيما تشمل الأطر المجتمعية النظم السياسية والاقتصادية والتعليمية والقانونية، وفي العادة، يجد كلّ إنسان نفسه أمام خيارات متعددة تُجبره على دراسة كل منها وتقييم أهميتها، وتحليل أبعادها وتبعاتها المحتملة على حياته ومستقبله، وما يسعى إليه من أهداف، علماً أن بعض الخيارات تحتاج إلى قرار سريع، وبعضها الآخر يحتاج لوقت قد

المنارة للاستشارات

يطول حتى تُستكمل عملية التقييم المتعلقة به. وفي ضوء ما يتوصل إليه العقل من نتائج يختار الإنسان الأنسب أو الأفضل أو الأقل خسارة من الخيارات المتاحة له، وحين يُخطئ الإنسان في الاختيار، يتعلم في العادة من أخطائه، إذ يقوم العقل في حالات كهذه بتعديل طريقة دراسته للخيارات المتاحة وتقييمه لأهميتها وتبعاتها، ما يُضعف احتمالات الخطأ ويقوي احتمالات النجاح في المستقبل.

- **الدلالة اللسانية:**

اختار الشيخ مبارك الميلي عنوانا يحتاج إلى الكثير من التأمل لقراءته قراءة متأنية تقترب من الحقيقة المقصودة، جاء العنوان جملة اسمية ثابتة مفيدة (العقل): مبتدأ مرفوع بالضمة الظاهرة على آخره. (الجزائري): نعت تابع لمنعوته في الرفع. (في): حرف جر. (خطر) اسم مجرور بالكسرة الظاهرة على آخره. وشبه الجملة من الجار والمجرور (في خطر) في محل رفع خبر. الجملة إخبارية بسيطة التركيب قوية الدلالة. الشيخ الميلي كان ذكيا جدا في اختيار مفردات عنوانه فلم تكن لا مبهمة ولا معقدة. ختم العنوان بعلامتي تعجب !!).

علامة التعجب هي إحدى علامات الترقيم سهلة الكتابة والاستخدام، مواضع استعمالها واضحة فهي يسيرة، تستخدم العلامة لعرض الحالة النفسية أو الضغط النفسي الذي يمكن أن ينجم عن: الخوف، الغضب، الفرح، أو أي وجه آخر من أوجه الإثارة.

كما توظف بعد مواقف الانفعال المؤثرة؛ ومنها: الرهبة، والدهشة، والرغبة، والمدح كما تُستخدم علامة الترقيم هذه غالبا في نهاية تعجب، أو الجملة المؤكدة. المشكلة أنّ الناس تحب استخدام علامات التعجب استخداما مستمرا حتى ولو لم تكن بحاجة إليها. هذا النَّوع من الاستخدام غير مقبول، لا في المراسلات الرسمية، أو في الكتابةِ الأدبية التي تتضمن المقالات، القصص القصيرة، الرِّوايات، الشِّعر... وغيرها. لذا يجب أن تستخدم علامة التعجب برعاية. علامات التعجب الكثيرة تجعل القراءة أمرا صعبا وسيئا في الوقت نفسه. وهي مثلها مثل علامات الترقيم الأخرى، كثرتها تعد مخالفة. والإفراط في

المنارة للاستشارات

استخدامها يصرف اهتمام القارئ بها فيقل تأثيرها. أنت ستقرأ علامة التعجب الأولى وبعد ذلك تفقد التّركيز على علامات التعجب الأخرى، أي: تتجاهلها، فتفقد بذلك تأثيرها.

استعمل الشيخ مبارك الميلي هذه العلامة مرتين، وذلك لتأكيد الخطر ودهشته منه وكذلك استغرابه لما آل إليه العقل الجزائري من تفكير غير سليم للأسف. عندما يتدنى مستوى تفكير كثير ممن يتصدرون المشهد السياسي والإعلامي، يزداد الخطر على المجتمع بمقدار ما يعيش عدد متزايد من أبنائه تحت وطأة الشعور بمؤامرات فى كل مكان، ويشير الشيخ إلى أن هناك عددا من الأسباب أدت إلى تدني مستوى تفكير الجزائريين، وأن هذا التدني في مستوى التفكير يؤدى إلى الضرر بالمجتمع. لكن ما يلفت الانتباه أن شيخنا اختار من معجمه لفظة العقل بل الفكر، فلماذا العقل وليس الفكر؟ هل يرى أن العقل هو من تضرر ويجب الإسراع لإيجاد حبل الأمان لعلاجه والتكفل به. أم أن الفكر لم يكن له قيمة بالنسبة له لهذا راح يركز على العقل؟

خلق الله الإنسان وركب فيه العقل، وأمره أن يستخدم هذا العقل في طاعة الله تعالى وأن يفكر في مخلوقاته، وقد نبه القرآن الكريم إلى أهمية العقل في آيات كثيرة، وكان يصف الكفار بأنهم لا يعقلون ولا يفقهون، وكان ينبه إلى أن آياته لا يستفيد منها إلا أولو النهى والألباب وهي العقول السليمة. قال أبو بكر الرازي[4] في كتابه "الطب الروحاني" معددا منافع العقل: "إن الباري – عز اسمه – إنما أعطانا العقل وحبانا به لننال ونبلغ به من المنافع العاجلة والآجلة غاية ما في جوهر مثلنا نيله وبلوغه، وأنه أعظم نعم الله عندنا، وأنفع الأشياء لنا وأجداها علينا...

فبالعقل فضلنا على الحيوان غير الناطق حتى ملكناها، وصرفناها في الوجوه العائدة منافعها علينا وعليها، وبالعقل أدركنا جميع ما يرفعنا، ويحسن ويطيب به عيشنا، ونصل به إلى مرادنا، فإنا بالعقل نلنا صناعة الطب الذي فيه الكثير من مصالح أجسادنا، وسائر الصناعات العائدة علينا، النافعة لنا، وبه أدركنا الأمور الغامضة البعيدة المستورة عنا، وبه عرفنا شكل الأرض والفلك، وعظم الشمس، والقمر وسائر الكواكب وأبعادها وحركاتها

المنارة للاستشارات

وبه وصلنا إلى معرفة الباري – عز وجل – الذي هو أعظم ما استدركنا، وأنفع ما أصبنا. وبالجملة، فإنه الشيء الذي لولاه كانت حالتنا حالة البهائم والأطفال والمجانين"[5]. ما هو العقل وماهو الفكر؟ هل هما مختلفان أم أنهما شيء واحد؟

ورد في لسان العرب: "العقل هو الحِجْرُ والنُّهى، ضدّ الحُمق؛ والعاقل هو الجامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عقَلتُ البعير إذا جمعتُ قوائمَه؛ والعاقل من يحبسُ نفسه ويردُّها عن هواها ... واعتُقِلَ لسانُه إذا حُبِسَ ومُنِعَ الكلام ... وسُمِّيَ العقلُ عقلاً لأنَّه يعقِلُ صاحبَه عن التورُّط في المهالك..."[6] أمَّا في القرآن الكريم فلم تَرِدْ كلمة "العَقل" كاسم، بل وردَت بصيغة الفِعل: ﴿**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون**﴾(سورة البقرة: 170).

ويعرفه هيوم Hume الذي يقول: "ليس العقل إلا مجموعة من المُدركات المختلفة". أما وليام جايمس William James فإنه يعرف العقل بأنه "دفق من الشعور أو الوعي"[7] وفي اللاتينية (intellect us): من الفعل intelligere بمعنى يفهم.

وقد ميز الرومان بين العقل والروح، فأطلقوا لفظ (mens) على العَقل، ولفظَ (anima) على الروح[8]. أما الفكر فهو إعمال العقل في الأشياء للوصول إلى معرفتها، وهو مرادف للنظر العقلي (reflexion) والتأمُّل (meditation)، ومُقابل للحدس[9](intuition) .

ويختلط أحيانا بالعقل إلى الحد الذي اعتبره "الجابري" مرادفا له عندما يستخدم كـ"أداة". فهو يشير إلى أنه كان بإمكانه استخدام لفظة "فكر" بدل "عقل" في رباعيته المعروفة بـ"نقد العقل العربي"، لولا أنّ هذه الكلمة "تعني في الاستعمال الشائع اليوم مضمون هذا الفكر ومحتواه، أي جملة الآراء والأفكار التي يُعبر بها، ومن خلالها، [أي] شعب، عن اهتماماته ومشاغله، وأيضا عن مثله الأخلاقية ومعتقداته المذهبية وطموحاته السياسية والاجتماعية "[10].

المنارة للاستشارات

- **الدلالة العميقة:**

إنّ الفلسفة التي تطبع تفكير مبارك الميلي فلسفة واقعية تنبع من تفكير إنسان مستوعب أسباب معاناة بلاده، متطلع إلى معايشة عصره، فلسفة تلح على تمتين الصلة بين الفكر والعمل المطعم بالنزعة العقلية، باعتبار العقل ميزة الإنسان وأداة عمله، والعقل من ناحية أخرى هو القوى الروحية التي بها يكون التفكير والنظر. ولأنّ العقل أعم من الفكر اختاره حتى يحدد مشكلته الحقيقية، وينبه إلى خطر محدق بالجزائري إذا لم يحاول إعمال عقله بالطريقة الصائبة.

- **المناط الجامع:**

فالمناط الذي هو بمثابة نواة دلالية للنص، يتألف ليس من المقومات القاموسية التي تشكله – والتي سبق لغريماس أن سماها بالمقومات النووية[11]– ومن المقومات التي يمنحها إياه السياق النصي؛ بل يتألف بالنسبة له من مقومات لازمة، وهي التي تترادف مع المقومات النووية عند غريماس أو القاموسية عند إيكو؛ ومن المقومات التابعة، التي تتجاوز المقومات السياقية النصية عند غريماس إلى المقومات التي يؤشر عليها السياق الخارجي، أي إلى المقومات الموسوعية (وفق مصطلح إيكو) والتي تتصل بكل أنواع التسنينات الاجتماعية والثقافية)، وقد وصف شكل تحول المناط إلى سياقات مؤثثة انطلاقا من نمطي المقومات بفضل مقولات الحقل الدلالي، التي حددها في المناط الجامع، والمجال، ثم البعد[12]. وهي كما هو واضح عبارة عن مؤولات ذهنية تعريفية، تولد السياقات المتراتبة للموضوع الدينامي المناط الجامع: ويشكل القسم الاستبدالي الأصغر للمناطات، والتي يمكن أن تتحدد داخله، ذاتيا وحسب. مثل المناط الجامع /التبغ/ مثلا، الذي يشمل المناطات الفرعية من نوع: السيجارة. السيجار. الغليون.. ويتميز المناط الجامع بكونه، حين يدخل في تكوين نص ما، يشكل عالما دلاليا مصغرا..

من بين أهم المفاهيم المهمة التي تناولها المنهج التأويلي مفهوم يسمى (وجهة النظر الطوافة أو الجوالة)، وهي "التي تتيح للقارئ أن يغير اتجاهه مع تغير مسار الحبكة.. كلما اقتضى الأمر ذلك، دون أن يضيع هذا الاتجاه. وهذا ما أشار إليه أيزر عندما قال: إن

المنارة للاستشارات

القارئ يشكل وحدات كلية خلال عملية مشاركته في إنتاج المعنى. فإذا وقع ما ينافي هذه الوحدة فإن على القارئ أن يقوم بمجموعة من المراجعات التي تعيد للأشياء تآلفها وانسجامها. فإذا عجز عن فعل ذلك، فانه يكون قد عجز عن إقامة الاتصال الحقيقي مع النص، مما يؤدي إلى عجزه عن فهمه، وبذلك حدث عدم تطابق بين أفق توقع القارئ وأفق توقع النص، أدى إلى ضجر القارئ وعجزه عن الفهم"[13]. ومثل هذه الطريقة في القراءة "تعني أن عملية تعديل الأفق تستمر منذ بداية القراءة وحتى الانتهاء منها، لأن القارئ معرض في كل لحظة أن يعيد النظر في معانيه"[14].

تميز نص الشيخ مبارك الميلي بجمل وآيات قرآنية وضعت مابين قوسين،وأثناء قراءتي المتكررة للنص شعرت بأن الشيخ جعلها كذلك للفت انتباه القراء وإقامة اتصال حقيقي بين النص والقارئ، إنها تمثل مفاتيح لأفكاره التي يقصدها، وبالفعل في محاولتي للتحليل وجدت أن ما جاء مابين قوسين يمثل إحداثيات مهمة لفك شفرات هذه الشفرات هي لغز الخطر الذي يداهم العقل الجزائري. وقوله: (وهو الصانع الحكيم)[15] هو كلام فيه كثير من الحكمة واليقظة، نابع من تشرب قرآني، وإدراك بالعقيدة الإسلامية، لأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنسان عبثا خاليا من المصلحة، "بل خلق كل شيء بقدر وجعل له جهتي صلاح وضرر حتى أشرف الأشياء وهو العقل"[16]. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**حم ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ**﴾[الأحقاف: (3،2،1)]، خلق الله سبحانه وتعالى الكون ومافيه من آيات بالحق، وهو ما تقتضيه الحكمة وهو دلالة على وجود الصانع الحكيم الباهر بقدرته ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾(النحل: 12)؛ أي لأهل العقول السليمة الصافية من ظلمة الغفلة والشهوات، إن معرفة جانب المصلحة وتمييز النافع من الضار يؤدي إلى نيل السعادتين والفوز بالدارين. ويقصد بالسعادتين أو الدارين الدنيا والآخرة.

مجد الإسلام لا يعود إلا بالعمل بأحكام الكتاب والسنة حتى ننال السعادتين في الدنيا والآخرة، وبذلك يجب على كل مسلم أن يؤدي واجبه نحو الله بالمعرفة والشكر، ونحو رسوله صلى الله عليه وسلم بتصديقه وطاعته واتباعه ومحبته والصلاة عليه وعلى آله وصحبه. لذا لا يجب أن ننحرف عن ملة رسولنا الكريم.

المنارة للاستشارات

(ولا عذر لجاهل) وهي عبارة ثانية كان الشيخ قد وضعها بين قوسين، وهو لا يحب أن يعذر الجاهل لجهله، لأنّ الله ميز الإنسان بالعقل، وهذا يعني أنه قادر على التفكير ومعرفة الخطأ من الصواب؛ فالواجب على الرجال والنساء من المسلمين التفقه في الدين وعدم السكوت على الجهل، وعدم الإعراض أو الغفلة؛ لأنهم خلقوا ليعبدوا الله ويطيعوه سبحانه ولا سبيل إلى ذلك إلا بالعلم، والعلم لا يحصل بالغفلة والإعراض؛ بل لا بد من سؤال أهل العلم حتى يتعلم الجاهل، وفي هذا الصدد يقول: "إن الله لم يبق لك هذه الصبابة من العقل إلا لشعورك بعض الشعور بالمسافة التي بينك وبين غيرك فكثيرا ما تقول إذا مر بك اختراع غربي وأنت (ولا عذر لجاهل) تجهل الاختراع العربي قاتلهم الله ما فاتهم إلا حيلة الموت ترمز بذلك إلى إكبارك ما تراه من غيرك واستضعاف نفسك وبني جنسك"[17].

- **دلالة الآيات القرآنية:**

﴿**وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة**﴾ وهي الآية الكريمة الخامسة من سورة البينة، نزلت بالمدينة، ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ○ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ○ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ○ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ○ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾[سورة البينة (1...5)].

وقوله: ﴿**وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**﴾ كقوله: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾(الأنبياء: 25) [ولهذا قال: حنفاء أي: متحنفين عن الشرك إلى التوحيد، (**ويقيموا الصلاة**) وهي أشرف عبادات البدن (**ويؤتوا الزكاة**) وهي الإحسان إلى الفقراء. (وذلك دين القيمة (أي: الملة القائمة العادلة، أو: الأمة المستقيمة المعتدلة. وقد استدل كثير من الأئمة كالزهري والشافعي بهذه الآية الكريمة على أنّ الأعمال داخلة في الإيمان؛ ولهذا قال: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾.

المنارة للاستشارات

عن أبي جعفر عليه السّلام، قال: «من قرأ سورة {لَمْ يَكُنِ} [البينة:1] كان بريئا من المشركين، وأدخل في دين محمّد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، وبعثه اللّه عزّ وجلّ مؤمنا وحاسبه حسابا يسيرا»[18].

ومن خواص القرآن: روي عن النبيّ صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، أنّه قال: «من قرأ هذه السورة كان يوم القيامة مع خير البريّة رفيقا وصاحبا ، وهو عليّ عليه السّلام.."[19].

وقد أدرج آية أخرى من سورة البروج ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ**(10)﴾ وتفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾: أي حرقوهم بالنار. والعرب تقول: فتن فلان الدرهم والدينار إذا أدخله الكور لينظر جودته. ودينار مفتون. ويسمى الصائغ الفتان، وكذلك الشيطان، وورق فتين، أي فضة محترقة. ويقال للحرة فتين، أي كأنها أحرقت حجارتها بالنار، وذلك لسوادها. (ثم لم يتوبوا) أي من قبيح صنيعهم مع ما أظهره الله لهذا الملك الجبار الظالم وقومه من الآيات البينات على يد الغلام. (**فلهم عذاب جهنم**) لكفرهم. (**ولهم عذاب الحريق**) في الدنيا لإحراقهم المؤمنين بالنار. وقد تقدم عن ابن عباس. وقيل: ولهم عذاب الحريق أي ولهم في الآخرة عذاب زائد على عذاب كفرهم بما أحرقوا المؤمنين. وقيل: لهم عذاب ، وعذاب جهنم الحريق. والحريق: اسم من أسماء جهنم؛ كالسعير. والنار دركات وأنواع ولها أسماء. وكأنهم يعذبون بالزمهرير في جهنم، ثم يعذبون بعذاب الحريق. فالأول عذاب ببردها ، والثاني عذاب بحرها[20].

- **دلالة الأبيات الشعرية:**

بالإضافة إلى الأقوال المأثورة والآيات القرآنية الكريمة التي وظفها مبارك الميلي في نصه نجده لجأ إلى الشعر ليستدل به في تمتين فكره، فاختار أبياتا تتحدث عن النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم وعن القرآن الكريم فكانت أبياتا صادقة جامعة، الأبيات الشعرية نظمها شبلي شميل[21] ورغم أنه مسيحي، ويُنسب إلى الإلحاد، إلا أنّه يقول عن القرآن: "إن في القرآن أحوالا اجتماعية عامة، وفيها من المرونة ما يجعلها صالحة للأخذ بها في كل

المنارة للاستشارات

مكان وزمان، حتى في أمر النساء، فإنه كلفهن بأن يكنّ محجوبات عن الرّيب والفواحش وأوجب على الرجل أن يتزوج واحدة عند عدم إمكان العدل، وأن القرآن فتح أمام البشر أبواب العمل للدنيا والآخرة، ولترقية الروح والجسد بعد أن أوصد غيره من الأديان تلك الأبواب، فقصر وظيفة البشرية على الزهد والتخلي عن هذا العالم الفاني"[22].

وبالرغم من أن (شبلي شميل) لم يكن من أهل الأدب والشعر، حيث كان باحثًا وطبيبًا ينحو منحى الفلاسفة في آرائهم، وهو صاحب «فلسفة النشوء والارتقاء» فإنه أبدع قصيدة رائعة، أعرب فيها عن عظمة النبي، وما حباه الله به من نعمة الفصاحة والبيان، التي تمثلت فى القرآن الكريم، من روائع وعظات وأحكام، فيقول[23]:

دع مِـن محـمّد في سُـدى قرآنهِ ... ما قَد نَحاهُ لِلحمة الغاياتِ
إنّي وإن أَكُ قَد كَفـرت بـدينـهِ ... هَل أَكفرنّ بِمُحكم الآياتِ ؟!!
أَو ما حَوَت في ناصِعِ الألفاظِ مِن ... حِكمٍ رَوادِعَ لِلهوى وعظاتِ
وَشَرائـعٍ لَو أَنّهـم عَقلـوا بها ... ما قيّدوا العمرانَ بِالعـاداتِ
نِـعمَ المـدير وَالحكيمُ وَإِنّـه ... الفَصاحَةِ مُصطفى الكلماتِ
رَجل الحِجا رَجلُ السياسَةِ والدها ... بَطل حليفُ النصرِ في الغاراتِ
بِبلاغةِ القرآنِ قَد خلَب النهـى ... وَبِسيفِهِ أَنحى على الهـامـاتِ
مِن دونهِ الأَبطـالُ في كلِّ الوَرى ... مِن سابقٍ أو لاحقٍ أو آت

في هذا المقام لا نريد التساؤل حول سبب استحضار أبيات شعرية لشاعر مسيحي ليستدل بها في أن الجزائريين انزاحوا عن عقيدتهم الصحيحة، وأصبحوا رهائن طقوس وعادات شيطانية لا تمت للإسلام بصلة، بل يهمنا أن هذه الأبيات شرحت الحال السائد بوصف دقيق بكلام بليغ. يمكن تلخيص مظاهر الضعف الذي ساد في فترة الاستعمار فيما يلي[24]:

– غياب سياسة تتبناها الدولة في مجال التربية والتعليم، مما ساعد على سيادة روح الفوضى.

المنارة للاستشارات

– عدم الاهتمام بالمواد العلمية المحضة ليحل محلها السحر والتدجيل والشعوذة وانتشار المرابطين والطرقية.

– التصوف صار سطحيا بعدما كان في القديم فكرا عميقا.

خاتمة:

ومن أهم القضايا التي ناقشها مبارك الميلي كسبب لانحراف العقدي في المجتمع الجزائري هي:

- محاربة بدع وضلالات رجال الطرق الصوفية التي خدرت المجتمع الجزائري وانحرفت به عن الإسلام الصحيح.
- إعادة تأهيل العقل الجزائري، الذي خيمت عليه الأوهام والخرافات وأتلفته.
- ربط المسلم الجزائري بمصادره الدينية الأصلية وهي الكتاب والسنة.
- إزالة القداسة عن هؤلاء الأشخاص (رجال الطرق الصوفية) بالتوعية والرجوع إلى العقيدة الصحيحة.
- فك التحالف الذي كان قائما بين بعض العلماء وشيوخ الطرق والأشراف والمرابطين هذا التحالف الذي أضر بالدين وجعله مطواعا في أيدي هؤلاء.

يكشف الشيخ مبارك الميلي في مقاله (العقل الجزائري في خطر !!) عن راهن العقل الجزائري وهويته العربية، ويسائل الواقع الثقافي الجزائري، وكل ما يعتمل في لحظته الراهنة هذه اللحظة الحافلة بالاضطرابات والانقسامات والصراعات والانهيارات، باحثا عن الأسباب والدوافع التي أوصلت عقله ووعيه إلى هذا الوضع الذي بلغ مرحلة خطيرة من التشويش والتشويه، محذرا من الاستمرار في هذه الحالة التي تتخبط فيها المفاهيم، ويسيطر الخرافي على العقلي، وتتسع دوائر الفقر والجهل والأمية والتطرف والتشدد تحت وقع الفساد. متسائلا: ما الذي أصاب العقلية الجزائرية لتنقطع صلتها عن منجزها، وتختفي مميزاتها شيئا فشيئا، وتصير إلى ما آلت إليه الآن من مكانة متأخرة؟

المنارة للاستشارات

الإحالات والهوامش

[1]– انظر مخلوف عامر، متابعات في الثقافة والأدب دراسة، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، دار هومه، ط1، 2002، ص17 وما بعدها.

[2]– مطعم أمينة، الشيخ مبارك الميلي وجهوده في الإصلاح العقدي، دكتوراه عقيدة، جامعة الجزائر1 كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر1، 2010، الملخص.

[3]– اسماعيل علوي اسماعيل، أثر استقبال نظرية التلقي على النقد العربي الحديث، مجلة الأقلام، عدد 4 سنة 1998، ص30.

[4]– محمد بن زكريا الرازي، أبو بكر، فيلسوف، من الأئمة في صناعة الطب وفي الكيمياء، ولد في الرَّي سنة 251هـ – 865م، وسافر إلى بغداد بعد سنِّ الثلاثين، وتوفِّي فيها سنة 313هـ – 925م، من مؤلفاته: الحاوي في صناعة الطب، وهو أجلُّ كتبه، تُرجِم إلى اللاتينية، وله تصانيف سمَّى ابنُ أبي أُصَيْبعة منها 232 كتابًا.

[5]– انظر: قدري حافظ طوقان، مقام العقل عند العرب، ص 10. رابط الموضوع:

https://www.alukah.net/culture/0/64948/#ixzz5dAKescXp

(6)– ابن منظور، لسان العرب، حرف العين (عقل)، دار صادر، بيروت، 2003، ج 10، ص 233.

[7]- Paul Edwards, Editor, The Encyclopedia of Philosophy New York: Macmillan Publishing, 1967, Vols. V & VI, p. 337.

[8]– مراد وهبة، المُعجم الفلسفيّ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، 1998، ص 457.

[9]- Paul Edwards, Editor, The Encyclopedia of Philosophy (New York: Macmillan Publishing, 1967), Vols. V & VI, p. 337.

[10]– محمَّد عابد الجابري، نقد العقل العربي: تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربيَّة، بيروت ط 5، ج 1، ص 11.

[11]- A.H.Greimas & J.Courtés, Sémiotique, Dictionnaire raisonné, Tome1, ed. Hachette, Paris 1979, p.334.

[12]- F.Rastier, Sémantique interprétative, ed. PUF, Paris 1987, p.334.

[13]– غسان السيد، ظرية التلقي والنقد العربي الحديث، مجلة الأقلام، عدد 4، سنة 1998، ص21.

[14]– المرجع نفسه، ص18.

[15]– مبارك الميلي، العقل الجزائري في خطر، جريدة المنتقد، الجزائر، العدد06، أوت 1925، ص 25.

[16]– المصدر، نفسه، ص25.

[17]– نفسه، ص25.

المنارة للاستشارات

(18)– الشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، دار طليعة نور، ط5، ص 154.

(19)– السيد هاشم البحراني، تفسير البرهان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 2006، ج 8، ص 345.

(20)– القرطبي، المصحف الإلكتروني، تفسير سورة البروج الرابط: http://www.e-quran.com

(21)– شبلي شميّل، (1850 – 1917م)، مسيحي لبناني من طلائع النهضة العربية. تخرج من الكلية البروتستنتية / الجامعة الأمريكية في بيروت، ثم توجّه إلى باريس لدراسة الطب، ثم استقر في مصر أقام في الإسكندرية، طنطا، ثم القاهرة. أصدر مجلة (الشفاء) سنة 1886م، وكان أول من أدخل نظريات داروين إلى العالم العربي من خلال كتاباته في المقتطف، ثم مؤلفه (فلسفة النشوء والارتقاء). كما أصدر هو وسلامة موسى صحيفة أسبوعية اسمها المستقبل سنة 1914 لكنها أغلقت بعد ستة عشر عددا.

(22)– محب الدين الخطيب، كتاب الحديقة مجموعة أدب بارع وحكمة بليغة، المكتبة السلفية، ص 802.

(23)– محمد جمعة، رسول الله في عيون الشعراء النصارى، يوم 2015/01/11 على الرابط:
http://islam.ahram.org.eg/NewsQ/4788.aspx

(24)– انظر مخلوف عامر، متابعات في الثقافة والأدب دراسة، ص 13،14.

المنارة للاستشارات